

## البدون في الرواية الكويتية -مقاربة ثقافية-

د.حصة بنت زيد المفرح

أستاذ الأدب والنقد الحديث المشارك

قسم اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة الملك سعود

[halmufarih@ksu.edu.sa](mailto:halmufarih@ksu.edu.sa)

**مستخلص:** يهتم هذا البحث بالكشف عن كيفية تمثل قضية البدون في الرواية الكويتية؛ إذ يحاول مقارنة نصوص روائية لا من حيث جمالياتها، وإنما من حيث ما تطرحه حول هذه القضية في أنساق ثقافية وفكرية متباينة، فالنصوص الروائية هنا خطاب اجتماعي وثقافي وليست نصوصاً أدبية فحسب. وقد شكلت علاقة نصوص الرواية بالثقافة ثلاثة خطابات: خطاب هيمنة الأنساق الثقافية، وهو خطاب عام ينطلق من التقاليد الثقافية للمجتمع، وخطاب مواجهة الأنساق الثقافية لكنه يكرس الهيمنة كذلك، وخطاب الأنساق المضمر الذي يشكل ثورة على السائد وقلباً لموازينه، وهذان الأخيران يشكلان دورهما نسقين خاصين يمثلان الرؤية الفردية التي تتعد عن الرؤية الجمعية السائدة للثقافة. **كلمات مفتاحية:** المركز والهامش، النسق الثقافي، الهوية، البدون، النسق الظاهر، النسق المضمر.

### المقدمة

هنا غير الكويتي الذي قد يحصل على الجنسية الكويتية فيصير كويتيًّا، كما أن الكويت بلد عربي تتميز باحتضانها الآخرين المختلفين، مما جعل الهوية الثقافية لها منفتحة ومتنامية على مدار سنوات عديدة؛ لذا بقي مجال الآخر مفتوحاً دون رسم نهائي لحدوده. وقد ارتبطت الرواية الكويتية منذ نشأتها بتحويلات المجتمع الكويتي وتأثره بملامح الحياة في كل فترة،

يعد الإبداع الروائي الكويتي ظاهرة لافتة للانتباه، توجهت إليه أقلام القراء والنقاد؛ لما يحمله من قضايا إشكالية، إلا أن هذه القضايا كانت متفاوتة النسبة من عمل إلى آخر ومن كاتب إلى آخر أيضاً. وقد تعددت أسئلة المتن الحكائي فيه، وكان من أهم هذه الأسئلة: سؤال الهوية وعلاقة الذات بالآخر المختلف، والآخر

بها ظهر في الرواية الكويتية في فترة متأخرة تلت مرحلة الغزو، وربما كان ذلك تماشيًا مع تحويل الاهتمام من المركز إلى الهامش.

ومن هنا، سيكون العمل في هذا البحث متجهًا نحو رصد الأنساق الثقافية لقضية البدون كما تجلت في المدونة، ودراستها وتحليلها، ثم محاولة تحديد علاقتها بكيفية تشكلها في المجتمع؛ إذ إنها ترتبط بالمجتمع وثقافته قبل أن تكون نتاجًا للنص، وذلك بتطبيق آليات النقد الثقافي. ولأن مهمة النقد الثقافي تقوم على نقد الأنساق الثقافية المضمره للخطابات الأدبية؛ فقد اختار البحث قراءة أبرز ما يطرحه الخطاب الروائي الكويتي حول البدون بين نسق ظاهر يحيل على نوع من التهميش والسلبية كما تجلت في المجتمع، حيث يتكرر نسق حضور الذات ورفض الآخر، ونسق المواجهة الذي يكرس بدوره الدونية، ونسق مضمّر يكشف عن فوقية للبدون وتأكيد لمواطنتهم الحقّة كما تجلت في النصوص الأدبية، وهذه الأنساق الكبرى بدورها تتفرع إلى أنساق صغرى.

#### الذات والآخر/ جدلية العلاقة:

اهتمت دراسات الأدب المقارن بالبحث عن صورة الآخر المختلف، وتعد علاقة الأنا بالآخر منطلقًا لتحديد أدوار متباينة لكل منهما وفقًا للون أو العرق أو الثقافة أو حتى اللغة، فالآخر والآخرين ((فرد أو جماعة لا يمكن تحديدهم إلا في ضوء مرجع هو

وكانت مرحلة النشأة مع أول رواية كويتية (مدرسة في المرقاب) عام ١٩٦٢م لصاحبها عبدالله خلف<sup>[١]</sup> ثم توالى الروايات وبرز عدد من كتاب الرواية مثل: إسماعيل فهد إسماعيل في (كانت السماء زرقاء) التي تعد أول عمل روائي كويتي واضح الملامح<sup>[٢]</sup>، وبالانتقال إلى مرحلة النضج الفكري نجد كاتبات مثل: خولة الفزويني وليلى العثمان، واستمرار عطاء إسماعيل فهد إسماعيل بصورة أكبر وأعمق<sup>[٣]</sup>. أما ابتداء من فترة التسعينات وحتى اليوم، فقد كانت الرواية الكويتية ثرية بتعدد موضوعاتها ولاسيما الاجتماعية والسياسية<sup>[٤]</sup>، كما دخلت مرحلة التجريب ورافقها اهتمام بتحويلات المجتمع الكويتي، وتأثره بملامح الحياة الحديثة؛ مما نقله من مجتمع بسيط إلى مجتمع عصري متحرك.

وتعد أسئلة التمثيل والهوية من أهم أسئلة خطاب ما بعد الاستعمار؛ إذ يستثمر مفاهيم العرق والأمة والهوية والثقافة الوطنية للرد بها على مركزية الآخر، ومواجهته بخطاب أكثر التصاقًا بالعناصر المحلية. كما شهد العالم منذ بداية التسعينات تحولات كبيرة شملت جوانب الوجود الإنساني كلها، وكان من نتائجها المباشرة إعادة النظر في الكثير من المفاهيم الكبرى كالإيديولوجيا والصراع الطبقي والقوميات وخصوصية الحضارات<sup>[٥]</sup>، ولهذه المرحلة خصوصية إذا ما أردنا ربطها بظاهرة الاهتمام بقضية البدون بعد حرب الخليج؛ لأن الاهتمام

<sup>٣</sup> المرجع السابق، ص ٣٨، ٣٧.

<sup>٤</sup> المرجع السابق، ص ٧٢.

<sup>٥</sup> سعيد بنكراد، مسالك المعنى- دراسة في بعض أنساق الثقافة العربية - سوريا: دار الحوار، ط ١، ٢٠٠٦م، ص ٧٣.

<sup>١</sup> محمد حسن عبدالله. الحركة الأدبية والفكرية في الكويت، رابطة الأدباء في الكويت، ط ١، ١٩٧٣، ص ٥٠٧.

<sup>٢</sup> زينب عيسى الياسي. البناء الفني في الرواية الكويتية المعاصرة، ط ١، الشارقة: دائرة الثقافة والإعلام، ٢٠٠٩، ص ٣٠.

الحاجة إليها لأنها ردة فعل لتحديات لم تكن معهودة في الأزمنة القديمة، وهي تحديات تجمع الاقتصادي مع السياسي مع الثقافي<sup>[٦]</sup> وإذا كان الآخر في السياق العربي الحديث قد اختزل في الغربي، فإن الآخر قد يكون داخل الثقافة العربية ممثلاً بطرق متنوعة: الأسود، المرأة، البدون، العربي من جنسية مختلفة.

في هذه الثقافة تشتغل آليتان متعارضتان: آلية الجذب والدمج بفضل التسامح وقبول الآخر، آلية الطرد: عند رغبة هذه الثقافة في تحصين هويتها ضد الآخرين، حين تتغلب آلية (الدمج) تتفتح الهوية على الآخر وتستوعبه، وحين تتغلب آلية (الطرد) وهو الأغلب، فإن الهوية تتغلق على نفسها، وتضيق على أفرادها، وتتفر من الآخر أو تسعى نحو إخضاعه وامتلاكه. وهنا يمكن النظر إلى جماعة تعيش بيننا بمثابة الآخر في لحظة تاريخية معينة، ثم يمكن لهذه الجماعة أن تتحول من الآخر لتكون جزءاً منا في لحظة تاريخية أخرى.

هذه القضية تطرح مفارقة مهمة؛ إذ على الرغم من اعتزاز العرب بأمتهم العربية التي بلورت هويتهم حتى غدوا أمة متفردة عن باقي الأمم، إلا أنه يلاحظ مع التقسيمات السياسية الحديثة تشطر هذه الهوية العامة إلى هويات فرعية، وقد يكون هذا الانشطار السبب الرئيس في العديد من المشكلات الفرعية للهوية بما

(الأنا) فإذا حددنا هوية الأنا كان الآخر فرداً أو جماعة يحكم علاقته بالأنا عامل التمايز، وهو تمايز إطاره الهوية أحياناً، والإجراء في أحيان أخرى<sup>[٦]</sup> ومع الدراسات الثقافية والنقد الثقافي بعدها أصبح من الممكن أن نرى الآخر داخل أمة واحدة أو مجتمع واحد.

وعلى الرغم من أن هذه العلاقة لا تختص بمجتمع أو فكر أو حضارة معينة دون غيرها، إذ إنها تتبع من الإنسان بغض النظر عن انتمائه؛ حيث الحرص على تأكيد الذات وحب التفرد وإقصاء الآخر انطلاقاً من رؤية فوقية ترى أن للذات الحق في السيطرة بينما تجعل الآخر هامشياً وأقل شأنًا، إلا أن تضخيم الذات وإلغاء الآخر هو السلوك الدارج عند الشخصية النسقية العربية قديماً وحديثاً، وذلك كله من سلالة ثقافية واحدة. لقد انتقل النسق - كما يرى الغدامي - وترحل من الشعر إلى الخطابة ومنها إلى الكتابة ليستقر بعد ذلك في الذهنية الثقافية للأمة، ويتحكم في خطاباتها وسلوكنا.<sup>[٧]</sup>

وإذا كان تأسيس الهوية لا يقوم على حدود جغرافية مادية فحسب بل يتجاوزها إلى أبعد من ذلك بكثير، إلا أن مسألة الآخر وأسئلة الهوية والاختلاف في الفكر المعاصر تتطرق في أحد جوانبها من تقسيمات الدول السياسية<sup>[٨]</sup> لقد جاءت الهوية كمخترع ثقافي ونشأت

<sup>٦</sup> عبدالله الغدامي، القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة، بيروت، دار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط٢، ٢٠٠٩، ص٥٢.

<sup>٦</sup> مصلح النجار وآخرون. الدراسات الثقافية ما بعد الكونياتية، الأردن: الأهلية، ط١، ٢٠٠٨، ص٥١.

<sup>٧</sup> عبدالله الغدامي، النقد الثقافي-قراءة في الأنساق الثقافية العربية- بيروت، دار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط٣، ٢٠٠٥، ص ١٢٣.

العنزي رواية (في حضرة العنقاء والخل الوفي) لإسماعيل فهد إسماعيل بأنها ((رواية مؤلمة إلى حد الوجد تجاه هذه القضية. [١٠]) ويؤكد ناقد آخر أن من أبرز القضايا في الكويت اليوم هي قضية الانتماء مما يؤكد حضور الخطاب الاجتماعي والسياسي واختلاله في الرواية، ويعزو هذا الاختلال إلى أصل المشكلة وهي (البدون) التي تعمقت بعد مرحلة الغزو العراقي بعد أن تبين أن هناك من تعاون منهم مع قوات الاحتلال، وكان بعضهم في الأصل ينتمون إلى الجيش والاستخبارات العراقية [١١]. وتثير فكرة الاهتمام مؤخراً بقضية البدون في الرواية الكويتية تساؤل الناقدة الكويتية سعاد العنزي إذ «على الرغم من أن القضية منذ ستينات القرن الماضي حتى الآن لم تجد حلاً، فإن الأدباء الكويتيين لم يتحدثوا عنها إلا قريباً في الأعوام الخمسة الأخيرة مما يطرح سؤالاً هاماً عن تأخرهم الإنساني في تبني مثل هذه القضية. [١٢]»

### الهوية الحديثة: من أين وإلى أين؟

يعد التنظيم القبلي في العالم العربي نظاماً سابقاً لقيام الدول في مراحل تاريخية معينة، فقد لعبت القبائل دوراً مهماً في تشكيل الحدود بين الدول قبل أن تتشكل الحكومات السياسية؛ إذ كانت القبيلة هي الهوية الاجتماعية الحاضنة الأهم من بين الهويات الأخرى،

في ذلك قضية البدون التي ناقشها الأدب، وبحثت الثقافة عن أطر موضوعية لها على افتراض أن النصوص الأدبية الروائية ليست مجرد أنساق لغوية مكثفة ببنياتها الداخلية، وإنما هي جزء من القيم والمعايير الثقافية التي تتحكم في إنتاجها.

وإذا كانت الألوان وملامح الوجه تشكل عوالم وأنساق اجتماعية وثقافية تفصلها حواجز طبقية في كثير من المجتمعات، إلا أن الأمر يبدو مختلفاً في قضية البدون الذين لهم الملامح والألوان نفسها التي يحملها المنتمي/ صاحب الجنسية وهو ما عبر عنه البدون (علي) في الصهد «مجموعة من اللاجئين بألوان مختلفة، بشرات سمراء، بيضاء، وصفراء، وبنية، نحن وحدنا كنا بلا لون. [٩]»

ومن هنا، يحق لنا التساؤل: هل الهوية الثقافية العربية حديثاً قادرة على احتضان الآخرين؟ وما الذي يعزز صورة البدون في الثقافة الخليجية؟ هل هو السياق التاريخي والاجتماعي؟ أم السياق السياسي؟ أم هما معاً؟ ومن هنا تقدم النصوص الروائية معرفة جدالية تمس كل جوانب الآخر، كما أن الذات في مقابل الآخر ليست بمنأى أيضاً عن النقد والمساءلة.

وبالنظر إلى موقف النقاد الكويتيين من القضية، نلاحظ أن الاهتمام بها يأتي أحياناً من قبيل التعاطف مع القضية وأثرها في المجتمع؛ إذ يصف الناقد علي

<sup>٩</sup> ناصر الظفيري، الصهد، المنامة: دار مسعى، ط١، ٢٠١٣، ص٣٠٠.

<sup>١٠</sup> ليلاس سويدان. شخصية البدون في الرواية الكويتية، جريدة القبس الإلكترونية، إبريل ٢٠١٤/٤/١. البحث على صيغة pdf.

<sup>١١</sup> فيصل محسن القحطاني. ((الخطاب الاجتماعي في الرواية الكويتية المعاصرة))، مجلة البيان، العدد ٥٧٧، أغسطس ٢٠١٨، ص٢٢، ٢١.

<sup>١٢</sup> سعاد العنزي. ((سؤال الهوية في أدب المرأة الكويتية المعاصرة))، صحراء نيوز، مجلة إلكترونية

التحديث الجديد، وهو الانتقال من مفهوم القبيلة إلى مفهوم الوطن في ظل مشتركات راسخة. ويرى البعض أن القومية العربية هي صيغة أخرى للقبيلة برداء عصري؛ حيث تعتمد على المشتركات العرقية في حين أن الدولة الحديثة تؤسس على التعددية. كما يرى الجابري أن ثلاثية العقيدة والقبيلة والغنيمة لعبت، وماتزال، دوراً بارزاً في السلوك السياسي الجمعي العربي من خلال الدول الحديثة.<sup>[١٥]</sup> وهكذا فإن الأنساق المضمرة تفعل فعلها في المجتمع العربي منذ القدم؛ حيث تتجلى الرهبة من الغريب وعدم تقبله، ويكون ذلك سائداً بين الجماعة، وعندها تشعر بأنها أرفع مكانة من الآخرين؛ مما يطبع سلوكها بروح الاستعلاء على أهل الهامش من أجل الحفاظ على الهوية النقية.

#### النسق بوصفه مفهومًا ثقافيًا:

النسق في اللغة ما كان على نظام واحد في الأشياء (لسان العرب/ ن س ق) وقد تنوعت تعريفاته حديثاً؛ فهو في اللسانيات (نظام ينطوي على استقلال ذاتي، يشكل كلاً موحدًا، وتقترن كليته بآنية علاقاته التي لا قيمة للأجزاء خارجها. وكان دي سوسير يعني بالنسق شيئاً قريباً من مفهوم البنية.<sup>[١٦]</sup>) فاللغة هي نسق سيميائي يقوم على العلاقات ولا قيمة للأجزاء إلا ضمن الكل، وهذا يعني أنه يحكم العلاقة بين العناصر اللسانية ومستوياتها، وأي اختلاف في هذه العلاقة يفقد

ومع ذلك فهناك هويتان ثقافيتان تنازعتا على هوية القبيلة لدى شعب الجزيرة العربية هما: الإسلام والعروبة.

وقد احتوت الثقافة العربية على ثلاثة أنساق متقاطعة: نسق الفضائل الدينية، نسق الفضائل القبلية الثقافية، نسق قبائلي (متفرع من النسق الثاني) فإذا كان النسق الأول دينياً يستمد عطاءه الخطابي من الإسلام، فإن النسق الثاني قبلياً استمد خطابه من الثقافة، فتقاطع مع النسق الديني ودعّمه؛ لكونهما يحملان همًا مشتركًا، هو هم الفرد العربي المسلم. والنسق الثالث القبائلي ولد من رحم القبيلة واتخذ لنفسه خطاباً مضاداً للنسق الثاني، نسق الفضائل القبلية الثقافية بل عمل على معارضته والانتقاص منه<sup>[١٣]</sup>، ويفرق الغدامي بين القبيلة والقبائلية «المصطلح غير المحايد، وهو مفهوم انحيازي وعرقي يقوم على الإقصاء والتمييز، أما القبيلة فهي تعبير محايد بما أن القبيلة قيمة اجتماعية وثقافية نشأت لضرورة معاشية وبيئية.<sup>[١٤]</sup>»

وحيث تحولت المجتمعات القبلية إلى المدينة، تحولت الثقافة القبلية تدريجياً من الانتماء التمثيلي إلى الانتماء الرمزي. وفي الخليج حيث البنى الاجتماعية والظروف تتشابه؛ فإن الهوية الوطنية الحديثة جاءت لتكمل الهوية القبلية التي احتفظ بها أصحابها، ولكن عن طريق توحيد للمجتمع بثقافة جديدة متكاملة تتكيف مع

<sup>١٣</sup> الغدامي، القبيلة والقبائلية، ص ١٠٠.

<sup>١٤</sup> المرجع السابق، ص ٤٢.

<sup>١٥</sup> محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٠، ص ٤٣-٥٢.

<sup>١٦</sup> إيديت كريزويل، عصر البنيوية، ترجمة: جابر عصفور، الكويت: دار سعاد الصباح ط ١، ١٩٩٣، ص ٢٩١.

والأنساق الثقافية كما تعرفها ضياء الكعبي) نظم بعضها كامن وبعضها ظاهر في ثقافة من الثقافات، حيث تتفاعل في هذه النظم العلاقات المجازية عن التذكير والتأنيث الثقافي والعرق والدين والأعراف الاجتماعية والقيود السياسية والتقاليد الأدبية والطبقية، وعلاقات السلطة التي تحدد المواقع الفاعلة للذوات، وهذه النظم ذات صلة وثيقة بإنتاج الخطاب الإبداعي والفكري وطرائق تلقيه<sup>[٢٢]</sup>، ومن هنا، يسعى النقد الثقافي إلى مساءلة البنى النصية بوصفها حوادث ثقافية، وذلك من أجل اكتناه أبعادها ومضمراتها النسقية التي تبدو وثيقة الصلة بالسياقات الثقافية والظروف التاريخية التي أنتجتها<sup>[٢٣]</sup>، ولذلك يكون الكشف عن النسق في النص الأدبي من النقاء معنيين: أحدهما معنن والآخر مضمر ومضاد للمعلن، وهذا النص يشترط فيه أن يتصف بالجمالية والجماهيرية والمقروئية العريضة<sup>[٢٤]</sup>؛ فالنص هنا حادثة ثقافية قبل أن يكون قيمة جمالية فحسب. وإذا كان النسق الثقافي لا يغدو نسقاً إلا بالتكرار حتى يتعزز داخل الثقافة وتعبّر عنه نصوصها، فإنه يجب أن يتكرر كذلك في هذه النصوص ليشكل ظواهر دالة، ومن هنا، فإن الكشف عن هذا النسق ضمن النصوص

النسق توازنه ويغير معالمه<sup>[١٧]</sup>، أما تالكوت بارسونز فيرى أنه «نظام ينطوي على أفراد فاعلين تتحدد علاقاتهم بمواقفهم وأدوارهم التي تتبع من الرموز المشتركة والمقروءة ثقافياً<sup>[١٨]</sup>» وخلص الأمر: أن النسق قائم على عناصر متكاملة ومتفاعلة تحقق وظيفة معينة، لكن النسق يتجاوز هذه الأجزاء ليتمثل العام بعيداً عن التخصيص والتجزئة. وقد اهتمت المناهج النقدية من الشكلائية الروسية إلى البنوية بالنسق ضمن نظامين: نسق مفتوح حيث دراسة الخطابات في ضوء مرجعياته التاريخية والاجتماعية أو الأخلاقية، ونسق مغلق حيث دراسة أدبية الخطاب وعناصره الأسلوبية والتركيبية والدلالية بمعزل عن تلك المرجعيات، وقد رجحت الثاني<sup>[١٩]</sup>. والنسق من منظور آخر أحد أهم المفاهيم التي قام عليها مشروع (النقد الثقافي) فقد اتجه به وجهة ثقافية دلالية تتمثل في مضمون النص وحمولاته الثقافية إذ يمثل «مجموعة من القيم المتوارية خلف النصوص والخطابات والممارسات<sup>[٢٠]</sup>»؛ لأن النسق الثقافي-كما يشير الغدامي- يتسع للتعبير عن نوع جديد من الدلالة غير الدلالة النصية الصريحة<sup>[٢١]</sup>.

<sup>٢١</sup> الغدامي، النقد الثقافي، ص ٣٢.  
<sup>٢٢</sup> ضياء الكعبي، السرد العربي القديم- الأنساق الثقافية وإشكاليات التأويل- بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٥، ص ٥٢٢.  
<sup>٢٣</sup> يوسف عليمات، جماليات التحليل الثقافي- الشعر الجاهلي نموذجاً- بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ١، ٢٠٠٤، ص ٣٠.  
<sup>٢٤</sup> الغدامي، النقد الثقافي، ص ٨٠.

<sup>١٧</sup> أحمد يوسف، القراءة النسقية - سلطة البنية وهم المحايثة-، الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠٠٧، ص ١١٧، ص ١٢٠.  
<sup>١٨</sup> كرزويل، عصر البنوية، ص ٤١١.  
<sup>١٩</sup> إبراهيم، عبدالله، المطابقة والاختلاف- بحث في نقد المركزية الثقافية- بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ١، ٢٠٠٤، ص ٥٤١.  
<sup>٢٠</sup> نادر كاظم، الهوية والسرد-دراسات في النظرية والنقد الثقافي- بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ١، ٢٠٠٦، ص ٩.

الأنساق الثقافية تمارس فاعليتها على نحو ما عليها.<sup>[٢٨]</sup> وإذا كانت الثقافة تنهض في جزء كبير منها على عملية لا واعية، فإن الهوية تستند إلى معيار الانتماء الذي يقع ضمن عملية واعية، ومع نشوء الدول الحديثة أصبحت الهوية مرتبطة بشؤون الدولة، فكل دولة تسعى إلى تحديد هويتها الوطنية الموحدة التي تحدد المنتمين لها.

وعلى الرغم من رسوخ هذه الأنساق وأزليتها كما عبر الغدامي<sup>[٢٩]</sup>، غير أن هذه الأنساق يمكن أن يعترتها التحول والتغيير مع مرور الوقت مع ثبات المنطلق الذي نشأت منه؛ فالانتماء للوطن هنا يأخذ طابعاً سياسياً إلا أنه يتجذر في كافة النواحي الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والفكرية، وهنا يقترن الانتماء بجانب مهم هو الولاء الذي يعبر عن أقصى درجات الاندماج أو المشاركة بين الذات والجماعة؛ فالولاء حالة «دمج بين الذات الفردية في ذات أوسع وأشمل ليصبح الفرد بهذا الدمج جزءاً من أسرة أو من جماعة أو من أمة أو من الإنسانية جمعاء.<sup>[٣٠]</sup>»

ويمكننا أن نتبين علاقة نصوص الرواية بالثقافة من نسقين كبيرين هما: النسق العام الذي ينطلق من القبيلة والأعراف وثقافة المجتمع، والنسق الخاص حيث تشكل الرؤية الفردية التي تحاول الابتعاد عن الرؤية

الروائية يعكس النظرة مجموعة من البشر لأمر من الأمور ذات تعلق بجانب من جوانب حياة الإنسان الاجتماعية أو الاقتصادية أو النفسية أو العلمية أو الدينية<sup>[٢٥]</sup>، فالمجتمع نسق عام تتولد عنه مجموعة من الأنساق الفرعية: السياسي والاقتصادي والعلمي والثقافي<sup>[٢٦]</sup>؛ لذا، فإن قراءة الأنساق تتجه إلى دراسة العلاقة بين النص والمجتمع الذي ينتمي إليه. ودراسة الأدبي بغرض الكشف عن التحولات المفصلية التي يمر بها المجتمع، ويعدها نقطة انطلاق لرصد تاريخه وتحليل تجليات هذا التاريخ وصوره.

ووفقاً لكل ما سبق، فإن الاهتمام في هذا البحث لن يكون بالنصوص في حد ذاتها وإنما نتخذ منها وسيلة لاكتشاف حيل الثقافة وأنساقها المضمرة والمعلنة، وبهذا تغدو هذه النصوص في ضوء النقد الثقافي مفترضة لعلاقات متنوعة ضمن شروطها التاريخية والاجتماعية والثقافية، فتغدو متأثرة بها وتؤثر فيها أيضاً. وهذه النصوص يمكن رؤيتها بوصفها انعكاساً لمفاهيم العرق والانتماء القبلي مما يخولنا النظر إليها بوصفها متناً واحداً كبيراً وإن تنوعت جزئياته.

ومع أن هذه الدلالة النسقية لا تكون من صنع المؤلف وإنما من صنع الثقافة التي ينتمي إليها<sup>[٢٧]</sup>؛ فإن الذات المبدعة تعي ذاتها أولاً، وتعني الأنساق ثانياً ولكن تظل

<sup>٢٨</sup> أحمد يوسف، قراءة النص وسؤال الثقافة- استنباد الثقافة ووعي القارئ بتحويلات المعنى- عمان: عالم الكتب الحديث، ط ١، ٢٠٠٩، ص ٨٧.

<sup>٢٩</sup> الغدامي، النقد الثقافي، ص ٩٣.

<sup>٣٠</sup> زكي نجيب محمود، قيم من التراث، بيروت: دار الشروق، ١٩٩٠، ص ٣٩١.

<sup>٢٥</sup> نوارى سعودي أبو زيد، محاضرات في علم الدلالة، عمان: عالم الكتب الحديث، ط ١، ٢٠١١، ص ٤٠.

<sup>٢٦</sup> محمد مفتاح، التشابه والاختلاف، - بيروت، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط ١، ١٩٩٦، ص ١٥٧.

<sup>٢٧</sup> الغدامي، النقد الثقافي، ص ٧٩.

(الزواج....) تحول دون انضباطه التام. ومن هنا، يتشكل نسق أكبر هو الاختلاف والمغايرة ويتضمن أنساقًا تتفرع عنه.

### نسق الاختلاف والمغايرة:

نظر الفكر الغربي المعاصر إلى مسألة الهوية بوصفها ذات علاقة وثيقة بالاختلاف والمغايرة، فمقولات الوحدة والانسجام فيها أصبحت لاغية<sup>[٣١]</sup>، وتتشكل صورة البدون هنا من خلال وعيهم باختلافهم مما يشكل هوية مختلفة بالضرورة. وليس المقصود هنا المغايرة والاختلاف الثقافي؛ بالنظر إلى أن ثقافة البدون ترتبط بثقافة المكان الذي ولدوا ونشأوا فيه أيًا كانت انتماءاتهم، وإنما المقصود المغايرة في المواقف والأحوال. ولما كانت لهؤلاء البدون أوضاع مختلفة وظروف متناقضة عن غيرهم حدث الاختلاف، لذلك كان القبول بالاختلاف والإقرار به أمر لا غنى عنه حتى لا يدخل الطرفان في جدال وصدام. والاختلاف والخصوصية هنا يضمنان هذا النسق أنساقًا فرعية متنوعة:

### أ-الرفض:

يتجلى الرفض من أفراد المجتمع بوصفهم رموزًا للثقافة الأصل التي ترفض احتواء النسق المضاد (البدون) مما يحيلنا إلى علاقة المركز بالهامش؛ إذ إن المركز يسعى نحو تحقيق الانسجام بين عناصره، ورفض الهامش الذي يحاول خرق هذا الانسجام والإخلال بعناصره؛ فحين يتقدم غسان البدون لخطبة

الجمعية السائدة للثقافة في صورة تمرد عليها، أو أن تخضع لها وتكون ضمن تلك الرؤية الجمعية ومنتمية لها، ويمكن رصد هذه العلاقة في الخطابات التالية:

### أولاً/ خطاب هيمنة الأنساق الثقافية:

إن الكشف عن النسق المضمرة، يتطلب الاهتمام بالنسق الظاهر بوصفه وسيلة يمكن من خلالها الكشف عن المضمرة المتوارية خلفه بالاعتماد على ما يتضمنه من إشارات وإحالات تحيل عليه، إذ يتجلى النسق الظاهر في النصوص التي تناولت قضية البدون في نسق المعاناة والشعور بالدونية، فهذا البدون المصنف بالمواطن من الدرجة الثانية أو باللامواطن يدرك أن وضعه ينطلق من الخلفية السائدة في المجتمع العربي وحتى العالمي؛ التي تكرم المواطن الذي يمارس حقوقه كاملة وتستلب اللامواطن/ البدون الذي يفتقد هذه الحقوق، مما يسهم في الكشف عن مجموعة من الأنساق الفرعية له.

وبالنظر إلى أن أفعال الشخصيات الروائية تمثل واجهات تضرر مرجعيات ثقافية مضمرة، فإن شخصية البدون في المدونة يغلب عليها التصور الذي يبينه الخطاب الثقافي تجاه الآخر/ البدون، والواقع تحت هيمنة الرؤية النمطية للآخر في الثقافة العربية عمومًا؛ إذ يبدو نسق البدون غير منضبط على الرغم من التزامه بقوانين وأنظمة تحكمه، وتحكم الأنساق الأخرى في المجتمع، إلا أن افتقاره لبعض الأمور التي تحقق انضباط هذا النسق (الهوية/ السفر/ إجراءات

<sup>٣١</sup> عبدالسلام بنعبدالعاللي، أسس الفكر العربي المعاصر، الدار البيضاء: دار توبقال، ط١، ٢٠٠٢، ص٨٩.

إليها، وهو ما عبر عنه البدوي البدون (علي) في الصهد «حين أصبح ابن فضل انتقائياً في توثيق أوراق أهل القرية في منتصف الستينات مبعداً البدو عن الحصول على وثائق تثبت مواظنتهم.<sup>[٣٦]</sup>»

وتتنوع صور الإقصاء بعد ذلك حيث الإقصاء من التعليم، فإن تكون بدون «يعني أن لا تتال أي درجة فوق نطاق الثانوية العامة؛ لأن الدراسة في الجامعة حكر على كويتي الجنسية<sup>[٣٧]</sup>»، وفي نص آخر «كنا أكثر من مائتي طالب نقف أمام صالة القبول والتسجيل، يخرج لنا موظف يخبرنا بأن الجامعة لن تقبل الطلبة البدون هذا العام، لم تكن أمامي حيلة أخرى، فجأة ضاع كل شيء<sup>[٣٨]</sup>»، وينتج عن ذلك عدم الحصول على الوظيفة المناسبة أسوة بالمواطنين، وهو ما عبر عنه المنسي «الكويتيون عادة لا يعملون في الخدمة ولا يسكنون ملاحق... نحن كويتيون على الريحه.<sup>[٣٩]</sup>»

ويتضمن الإقصاء حرمان البدون من وثائق امتلاك البيوت التي يقطنونها منذ سنوات طويلة، وإبعادهم عنها بحجة عدم امتلاكها «أخرج موظف البلدية ورقة بيضاء كتب عليها (إزالة) وألصقها على الباب الحديدي، وكأنه يعلن فضيحتنا الأولى<sup>[٤٠]</sup>»، وقد تغدو هذه الورقة وسيلة لاكتساب الجنسية «لو كان لدينا ورقة

هند الكويتية ترد الجدة غنيمة «أنت ولدنا ونكن لك كل التقدير ولكن.. في مسألة الزواج... خولة تتفهم رفض جدتي لغسان فهي لا تريد لأحفادها أن يكونوا بدون مثل أبيهم، يرفضهم الناس والقانون<sup>[٣٢]</sup>»، ويتجاوز الرفض هنا الأفراد إلى ممثلات الثقافة الأخرى كالموسيقى «أخرج غسان آلة العود... أدار أحد المفاتيح شاداً على الوتر... لم يلبث طويلاً.. انقطع الوتر. رأيت.. حتى الأوتار ترفض.<sup>[٣٣]</sup>»

### ب- التبعية:

تستلزم التبعية النظر إلى المتبوع بوصفه الطرف الأعلى الذي يسعى التابع إلى استرضائه وخدمته، وهنا تحمل التبعية-ارتباطاً بمعناها اللغوي المعروف- دلالة التنقيص والسلبية والثانوية. في هذا النسق يغدو البدون مجرد آلة أو وسيلة؛ فالمجتمع يسعى إلى إذلاله وتعميق مرتبته الدونية «لم تبق عينان كريمتان أو حقيرتان لم أقبلهما بعيني كي أحصل على جواز سفري<sup>[٣٤]</sup>»، وفي نص آخر «أن تحتاج طوال حياتك إلى جحيم اسمه الآخرون كي تحظى بحياة، عمل، علم.<sup>[٣٥]</sup>»

### ج. الإقصاء:

عبرت النصوص عن بدايات هذا الإقصاء حين حرم البدون في مرحلة تأسيس الدولة من حق انتسابهم

<sup>٣٢</sup> سعود السنعوسي، ساق اليا ميو، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط٤، ٢٠١٤، ص٢٨٩.  
<sup>٣٣</sup> المصدر السابق، ص٢٠١.  
<sup>٣٤</sup> الظفيري، الصهد، ص ١٧٨.  
<sup>٣٥</sup> بثينة العيسى، ارتطام لم يسمع له دوي، الكويت: مكتبة آفاق، ط٢، ٢٠١٣، ص٨٩.

<sup>٣٦</sup> الصهد، ص٨٨.  
<sup>٣٧</sup> ارتطام لم يسمع له دوي، ص٨٩.  
<sup>٣٨</sup> المصدر السابق، ص١٤٢.  
<sup>٣٩</sup> إسماعيل فهد إسماعيل، في حضرة العنقاء والخل الوفي. بيروت: الدار العربية للدراسات والعلوم، ط١، ٢٠١٣، ص٢٥.  
<sup>٤٠</sup> الصهد، ص١٣٦.

يتشكل عدم الشعور بالأمان عند ملاحظة عدم تقبل الآخر، وهنا يتأكد الاعتقاد بأن تحقيق الذات لهذا الآخر/البدون لا يكون إلا بالاستعداد للمواقف والمواجهات الحاضرة والمستقبلية؛ مما يكرس مشاعر الخوف وعدم الأمان (كنت أعلم بأن حياتي تكون دائماً متأرجحة، وأن أقبل بحياة تشبه حياة الطير<sup>[٤٩]</sup>)، وفي موضع آخر «أكره كلمة (غداً)<sup>[٥٠]</sup>»؛ إذ لا يحمل المستقبل ما هو أجمل من الواقع الحالي.

### ثانياً/خطاب مواجهة الأنساق الثقافية:

يقسم (كاستلر) الهويات حسب مقومات نشوئها إلى ثلاث: هوية شرعية تنتجها المؤسسات الاجتماعية المهيمنة من أجل المحافظة على هذه الهيمنة، وهوية مصممة جديدة ينتجها أفراد فاعلون في المجتمع وفقاً لما يتوفر لديهم من الإمكانيات والوسائل الثقافية التي تعيد تعيين مكانتهم في المجتمع، كما في جماعة النساء التي واجهت الثقافة الذكورية، وهناك الهوية المقاومة التي تنتج في حال التصنيف الدولي حيث يتبنى الهامشيون وسائل للدفاع عن وجودهم وفق قواعد ومبادئ مغايرة ومضادة لما هو عند القوى المهيمنة.<sup>[٥١]</sup>

ويمكن ربط الهوية المقاومة بالأدب بوصفه أحد منتجات الثقافة، وهو وسيلة ملائمة للنطق من خلالها حتى لو كان ثائراً ومتمرداً عليها؛ فنصون البدون

أخرى... وثيقة تملك بيت... لو عندكم وثيقة بيت باسمك وباسم المرحوم زوجك سهلت مسألة منحكم الجنسية أنت وولدك.<sup>[٤١]</sup>

ويعجز البدون عن مغادرة البلاد لعدم وجود أوراق ثبوتية «لست أستطيع السفر، فأنا لست كويتياً<sup>[٤٢]</sup>»، «أنا بدون... السفر لا يتحقق إلا بوجود جواز سفر ولا يحق للبدون حصولهم عليه<sup>[٤٣]</sup>»، كما يتضمن المنع كل ما يتعلق بوثائق الميلاد والزواج والطلاق والوفاة «أن تحرم من الزواج لأن السجلات لا تباركه لعديمي الجنسية وتمنع من الطلاق لذات السبب<sup>[٤٤]</sup>»، وهنا يغدو الحل لمن تورطت من المواطنات في الزواج من بدون «اللجوء للطلاق حتى لا يحرم الأبناء من حق الحصول على الجنسية الكويتية للأُم<sup>[٤٥]</sup>»، وفي نص آخر «يمنع منعاً باتاً إصدار شهادات ميلاد لأبناء من لا يحملون وثائق ثبوتية... موتانا ممنوعون من استصدار شهادات وفاة<sup>[٤٦]</sup>»، ويتضمن الإقصاء أيضاً الحرمان من حق المشاركة الفعلية في تشكيل المجتمع «والدك بدون، والبدون لا يصوت في الانتخابات<sup>[٤٧]</sup>»، ويمارس الإقصاء فعله حتى خارج الوطن «ناسا ليست بحاجة لنا نحن المنفيون خارج الزمن، والمهمشون داخل الأرض.<sup>[٤٨]</sup>»

### د. الخوف من المجهول وعدم الشعور بالأمان:

<sup>٤٧</sup> الصهد، ص ١٤٠.  
<sup>٤٨</sup> المصدر السابق، ص ١٧٧.  
<sup>٤٩</sup> المصدر السابق، ص ١٧٨.  
<sup>٥٠</sup> المصدر السابق، ص ١٧٩.  
<sup>٥١</sup> الغدامي، القبيلة والقبائلية، ص ٥١.

<sup>٤١</sup> في حضرة العنقاء، ص ٢٤.  
<sup>٤٢</sup> ساق البامبو، ص ١٩١.  
<sup>٤٣</sup> في حضرة العنقاء، ص ٣٥.  
<sup>٤٤</sup> ارتطام لم يسمع له دوي، ص ٨٩.  
<sup>٤٥</sup> في حضرة العنقاء، ص ١٢٦.  
<sup>٤٦</sup> المصدر السابق، ص ٤٨.

هو ازدياد وانتقاص من لا يحمل الجنسية/ الهوية الوطنية حين يحرم حق الانتماء إلى الوطن بمفهومه الحديث (دونية) أما النصوص فالظاهر فيها أنها تحاول الدفاع عن هذا البدون وتجعله في منزلة فوقية، إلا أن النسق المضمّر الذي يمكن اكتشافه من خلال هذه النصوص يعود بنا إلى ما ترسخ في الثقافة حيث الدونية (القيح)؛ فهناك جوانب تناقض أو تتاهض هذه الأنساق وترفضها ظاهرياً لكنها تؤكدتها ضمناً، فما يقوم النسق الظاهر بترسيمه من خطاب البدون المباشر، يقوم النسق المضمّر بتقويضه من وسائل استخدمتها شخصيات البدون بوصفها برامج مضادة للأنساق الثقافية المضمرة حول قضيتهم لكنها في الحقيقة عمقت هذه الأنساق وبلورتها بصورة أخرى.

ولما كان المكان عنصراً ثقافياً، ومجموعة من القيم والضوابط؛ فإن التفاعل معه هو تفاعل ثقافي بالدرجة الأولى، وما يطبع هذه الروايات (في حضرة العنقاء والخل الوفي، سلالمة النهار، ساق البامبو، الصهد، ارتطام لم يسمع له دوي) هو حرصها على المكان وتنوعه للتعبير عن الضياع في دوامة هذه الأماكن التي لا يمكن أن تحل محل الوطن/ الأم، بالنظر إلى أن الشعور بالانتماء إلى وطن ما يصعب نقله وبالتالي يصعب تحقيق الانتماء لوطن آخر/ مكان آخر، وهذا يفسر تركيز الروايات على ثيمة السفر والرحيل والهجرة عندما يضيق بك الوطن؛ مما يعكس حالة الاضطراب التي يعيشها البدون، وهو اضطراب يكرس علاقته

تحدث عنهم وتكرس ما تقوله الثقافة في هيئة ثورة وتمرد على أوضاعهم في المجتمع، وحرمانهم حق الانتماء للوطن الذي لم يعرفوا سواه، هذه الأوضاع التي يجري تفصيلها في النصوص الروائية هي ترسيخ لوضعية البدون في المجتمع وتأكيد على ما تفرضه السلطة الثقافية عليها؛ فالانضمام إلى هوامش هذه السلطة يفرض الالتزام بأوامرها بوصفه اعترافاً بالفضل لأنها قبلت البدون داخل أسوارها وإن لم تعترف بانتمائه الحقيقي لها، وهو ما عبر عنه الغدامي بقوله: «المؤسسة الاجتماعية هنا لا تروض رعاياها عبر فرض القيود عليهم فحسب، بل إنها تقرر لهم سلفاً الوسائل التي يقاومون بها تلك القيود.. ما جرى اعتباره ثورة ضد السلطة لم يكن في حقيقته سوى واحدة من وسائل السلطة لترسيخ وجودها، وبه تتوسع السلطة وتقوى<sup>[٥٢]</sup>»، ويضرب لذلك مثلاً باتساع قوة المؤسسة الثقافية الذكورية مع نشوء المقاومة النسوية؛ لأن هذه المقاومة تستمد وسائلها من خطاب الهيمنة ذاته فنجاح الثورة محكوم بسقوطها بوصفها خطاباً معارضاً<sup>[٥٣]</sup> وهو ما يرد على لسان البدون في رواية الصهد «ما لم نكن ننتبه إليه هو أننا كنا نؤكد على إقصائنا وندعمه.<sup>[٥٤]</sup>»

في هذا الخطاب يمكن ملاحظة مدونات نصية تهتم بتصوير تجليات البدون في العمل الإبداعي في ظاهرها، وهي نقض لتداعيات القبيلة والانتماء والعنصرية وملابساتها في باطنها؛ فالراسخ في الثقافة

<sup>٥٢</sup> الغدامي، النقد الثقافي، ص ٤٦.

<sup>٥٣</sup> المرجع السابق، ص ٤٦.

<sup>٥٤</sup> الصهد، ص ١٩٦.

المميزة له، كما هو شومان في الصهد وتعلقه بالصحراء (في الطريق إلى صحرائه تراءت له (الجهراء) قرية من بيوت الطين والشعر وصفائح حديد وخشب، ودون أن يفكر في أبعد من ذلك قرر الرحيل)»<sup>[٥٥]</sup>، فإذا كانت الرواية تبدأ أحداثها من الصحراء الشاسعة التي لا تحدد جغرافيتها بشكل واضح، فإنها تحيل إلى قضية أوسع من قضية بدون الكويت حيث بدون الخليج عامة. كما أن الصحراء هنا بوصفها تعبيراً عن الضياع والتلاشي وعدم الاستقرار؛ مما يعيق تحقيق الهوية رغم الشعور بالانتماء.

وإذا كان السعي الحثيث إلى الهوية والانتماء للوطن المأمول (الكويت) يشكلان مظهرًا من مظاهر دونية البدون، فإن مغادرة هذا الوطن يعد بحثًا عن اللا انتماء/ اللاهوية التي يكرسها هذا الوضع، غير أن الهروب من الانتماء والانضواء في المجتمع الكويتي هو في الحقيقة تأكيد على نسق الدونية؛ إذ يغدو البدون متخبطاً يبحث عن بدائل مناسبة للوطن لكنه لا يفلح في الاندماج ضمنها فهي ليست الوطن/الحلم. وهذا يكرس نسقًا ثقافيًا مضمراً قوامه الرفض لكل ما هو غير الوطن، وهو ما عبر عنه علي في الصهد «غادرت وطني ليس لأنني لا أنتمي إليه، وإنما غادرته لأنني لا أريد له أن يغادرني»<sup>[٥٦]</sup>، وعندما يوجه السؤال إليه بعد حصوله على الجنسية الكندية «أنت كندي؟ قال: لم أعرف إن كان سائلاً أو مستغرباً لذلك لم أرد، وأكمل: أنت محظوظ. ربما، لا أعلم تمامًا»<sup>[٥٧]</sup>، كما

بالمكان بشكل أولي. وهذا يشير إلى خصوصية المكان بوصفه انتماء وطنيًا، تاريخيًا، عرقيًا حيث إن التمركز فيه يعني التمركز في الثقافة التي تشكل هويته.

### 1/ نسق رفض الوطن/ المكان:

إن اختيار مكان ما محورًا للسرد يدفعنا إلى التعامل معه بوصفه نسقًا ثقافيًا؛ فكل مكان له وجود متميز أو تابع لنسقه الثقافي، ومن هنا فاختيار الكويت تارة أو العالم العربي عمومًا، والعالم الغربي الذي تهرب إليه شخصيات البدون تارة أخرى، هو اختيار لنسق الهوية والانتماء بما يشكلان من سطوة على الشخصيات؛ إذ إن فقد الانتماء في الحالتين يدفع إلى حالة من الشتات والتشظي بين المكانيين، بل قد يصل حتى إلى الرغبة في الانتماء إلى المكان الثاني طالما أن المكان الأول الذي من المفترض أن يكون حضنًا دافئًا يغدو طاردًا ونابذًا له. والآخر في الروايات ينتقل من فضاء داخلي (الكويت) إلى فضاءات خارجية (كندا وأمريكا) في الصهد، و(السويد) في ارتطام لم يسمع له دوي، و(فرنسا) في سلالم النهار، فالنصوص بالتالي تلغي الفضاء الداخلي من السرد وتهمشه، ويكون تهميش المكان بوصفه ردة فعل على الرفض، كما أن التأكيد على فعل الارتحال يؤدي إلى التشظي وقلق الانتماء. إلا أن هذا لا يمنع وجود شخصيات من البدون تغدو متفاعلة مع المكان بل قد تكون جزءًا لا يتجزأ منه؛ إذ إن هذه الشخصيات المكانية تقع تحت سطوته وبالتالي تخضع للسمات الثقافية والاجتماعية

<sup>٥٧</sup> المصدر السابق، ص ١٥٧.

<sup>٥٥</sup> المصدر السابق، ص ٣٧.

<sup>٥٦</sup> المصدر السابق، ص ٣٦١.

ثقافة هو جزء منها حتمًا سيكون منبؤًا بصورة مضاعفة من ثقافة هو بعيد عنها فكرًا وانتماء وهو ما يؤكد ضاري «أحد عشر عامًا قضيتها في المنفى أبذل جهدي لكي أتواءم مع كل ما لا يشبهني، فهذا أنا في النهاية لا أشبه وطني ولا منفاي». [٦٣]

ومن هنا، يعكس النسق الثقافي الظاهر في النصوص انتقالًا من رفض السلطة في العالم الخارجي/ المجتمع إلى البحث عن مواجهة تقوم على إثبات الذات ودورها فيه من خلال الهروب منه، لكن التعمق في القراءة يحيلنا إلى ما هو أبعد من هذا النسق الظاهر؛ فالهروب المبتغى غير ناجح طالما فقد الاستقرار ومستلزماته. كما يلاحظ في جميع النصوص تسمية شخصيات البدون تسمية أحادية وربما كان ذلك ترسيخًا للنظرة الدونية في الثقافة التي لا تعترف إلا بالامتداد والهوية حيث الاسم مع اللقب والكنية.

## ٢/ نسق الثورة والتمرد على المكان:

على الرغم من حالة الاستلاب التي يعيشها الآخر/ البدون فقد استطاعت النصوص الروائية أن تمثل نسقًا ثقافيًا برز بصورة التمرد ومحاولة التحرر من ثقافة المجتمع وتقاليد، إذ بمجرد مغادرة المكان الحاضر لهذه الثقافة يتحول النسق من المحافظة إلى التحرر؛ ويتمثل في نبذ العادات والتقاليد المتأصلة في ثقافة مجتمع الوطن الذي يسعى البدون للانتماء إليه، وهذا يكرس نسقًا ثقافيًا مضمراً عن البدون قوامه أن

أنها لا تعوضه عن انتمائه الكويتي «عدت إلى الكويت، أحمل أوراقًا جديدة وهوية غامضة، ما في داخلي ينفي ما هو خارجي». [٥٨]

ويمثل السفر إلى الخارج/ العالم الغربي تحديدًا تحررًا من الماضي الذي يحمل هويتين مزدوجتين، أو لنقل الهوية الغائبة المجهولة، والهوية الحاضرة المفقودة في سبيل تأسيس هوية ثالثة جديدة، طالما أن الانتماء إلى الهويتين السابقتين أصبح غير ممكن في ظل تداعيات النسق الثقافي المضمّر الذي يؤكد على أصالة النسب والقبيلة والأصل، وهو ما عبرت عنه فهدة في سلالم النهار «هنا بدأت أشعر أن ذاتي المحررة تنمو وتكبر وبإنسانيتي مكتملة لا يشوبها شعور بالنقص أو المهانة أو الاحتقار» [٥٩]، وقد يكون التحرر من خلال رفض الهوية أيًا كان نوعها كما فعل ضاري في ارتطام لم يسمع له دوي «تتملص من أي هوية... تجيب بلغتك أنت، الكافرة بالانتماء أبدًا، بالأوطان أبدًا: أنا ضاري» [٦٠]، وإن كان هذا الرفض شكليًا كما رأته فرح الكويتية وهي تعاتب ضاري لادعائه كراهية الكويت «الهوية التي تنكرت لها بجفاء، ولكنها تسكنك بوله» [٦١]، رغم وجود مبررات لهذه الكراهية في رأيه «أنا لا أحب وطنًا يبالغ في احتقاري! وماذا فعلت الكويت لك؟! لا شيء رفضت إعطائي الجنسية فقط!» [٦٢]، ويكون نتيجة ذلك كله الفشل في الاندماج مع العالم الغربي؛ إذ إن من يكون منبؤًا في

<sup>٦١</sup> المصدر السابق، ص ٤٩.

<sup>٦٢</sup> المصدر السابق، ص ٨٥.

<sup>٦٣</sup> المصدر السابق، ص ١٢٧.

<sup>٥٨</sup> المصدر السابق، ص ٢٨١.

<sup>٥٩</sup> فوزية شويش السالم، سلالم النهار، القاهرة: دار العين، ط ١،

٢٠١٢، ص ٦٤.

<sup>٦٠</sup> ارتطام لم يسمع له دوي، ص ٢٢.

جنسيتها الكويتية أو عدمها، وهو ما يحدث لفهدة وهي من البدون أيضًا في سلالم النهار التي حافظت على شرفها في الكويت رغم صعوبة الظروف المحيطة بها حين كانت تحيي حفلات راقصة مشبوهة، وعندما انتقلت إلى باريس دخلت ضمن تجربتين تقوضان هذا الشرف (الزنا والسحاق).

وتتجلى الثورة من خلال دلائل أخرى كما في إهداء ارتطام لم يسمع له دوي «إلى جميع ضواري هذا العالم» استناداً إلى ضاري البدون الذي تشغل الرواية بقضيته، فالبدون هنا في حال التمرد هم الضواري التي تصل وحشيتها حد الافتراس، والقضاء على الآخر لمجرد تحقيق ما ترغب في الحصول عليه، كما يلاحظ في سلالم النهار أسماء مثل فهدة وضاري وهي ذات علاقة بعالم الحيوان حيث الفوضى والضاورة والقسوة «نسميها فهدة.. لأنها قوية وشرسة، وافترست توأمها أخي<sup>[٦٤]</sup>»، وضاري الذي افترسها ثم جعلها لقمة سائفة في أفواه الآخرين؛ حين مارس فعل الافتراس مضاعفاً من خلال التسلط والجبروت المالي والطبقي والوراثي والوطني.

### ٣/ نسق البوح والكتابة:

الكتابة فعل إنساني يترجم حالة الفرد والمجتمع، وقد تغدو وسيلة للبحث عن البقاء وتحقيق الوجود الذي يستحضر موت الغائب على المستوى الثقافي والاجتماعي، فإذا كان الغياب على هذين الصعيدين؛ فإن الكتابة تعيد الاعتبار إلى الذات، وتؤكد حضورها

الانفلات من الجنسية المحددة والهوية الوطنية، هو انفلات في الحقيقة من كل القيم الدينية والاجتماعية وسعي نحو تقويضها؛ فالانتماء للوطن هو صانع الانضباط والالتزام، والتجرد منه عاقبته الانفلات والممارسات للأخلاقية المرفوضة عرفياً وثقافياً في المجتمعات العربية. وهو ما حدث لليال في الصهد إذ تسافر إلى الغرب لتواجه العالم المغاير تمامًا للعالم العربي من كافة النواحي الثقافية والاجتماعية والسياسية، وحين تفتقد الهوية الوطنية تركز على هويتها الأنثوية فتبدو شبة إلى أبعد حد، متمردة على كل القيم والأعراف والتقاليد التي تقرها الثقافة العربية. كما أن التمرد يظهر في انتهاك الموروث الثقافي الذي يشمل الأفكار والسلوكيات وحتى اللباس، فليال بمجرد مغادرتها للكويت فقدت كل ما كانت تؤمن به من دين وعادات وتقاليد الموطن الذي كانت تقطنه؛ فخرجت للسهرات الماجنة، وشربت الخمر، ومارست الجنس علانية، وأظهرت جرأة في ارتداء لباسها، وهذه دلائل على ضياع الموروث الثقافي والاجتماعي مما أفقدها الانتماء الحقيقي للكويت ذات الهوية العربية المسلمة. وإذا كانت الهوية مرتبطة بمولد الفرد وزمانه ومكانه فإنه لا يستطيع تبديل هذه الهوية بأي حال من الأحوال إلا لظروف معينة، ولكن مع (ليال) سنلاحظ العكس ذلك أنه بمجرد مغادرتها الكويت وتوجهها إلى بلاد أخرى (كندا أو أمريكا) تفقد كل ما تحمله من دلالات انتمائها لهويتها العربية الحقيقية، بغض النظر عن

<sup>٦٤</sup> سلالم النهار، ص ١٩.

جراء يقيني أنني في غفلة مني أكتب بانفعال غير مبرر<sup>[٦٦]</sup>»، وفي موضع آخر (يا زينب الكتابة عن الغم تغم... مما يجعل مواصلة الكتابة مهمة عسيرة تعافها الروح.<sup>[٦٧]</sup>)

### ثالثاً/خطاب الأنساق المضمرة:

إن النسق الظاهر الذي تكرسه روايات قضية (البدون) هو نسق المعاناة والشعور بالدونية؛ فالإنسان الذي يصنف مواطناً من الدرجة الثانية أو هو مواطن مع وقف التنفيذ، إن صح التعبير، يدرك وضعيات جديدة لكنيونته؛ لأن الخلفية الثقافية تقس ذاً الأصل وصاحب الانتماء، وفي هذا النسق الرئيس تمرر مجموعة من الأنساق الفرعية التي تفصح عن إكراهات الآخر الذي يعيش القهر الاجتماعي، فهذا النسق أضمّر أنساقاً أخرى، هي تعرية المواطن المنتمي حين تبرز فوقية البدون ودونية المواطن المنتمي، وتتأكد دونية المرأة أياً كانت لتكون البدون المضاعف، كما يظهر الارتهان إلى الماضي، ماضي الكويت أو الوطن المفقود، واللجنة الجمعية التي لا تغادر أحداً منهم، وكل هذه الأنساق تضمّر تورية ثقافية أكبر تتمثل في تأكيد مواطنة الذات اللامواطنة، فالأمر لم يعد متعلقاً بالهوية الورقية بقدر ارتباطه بالهوية الوجدانية والعقلية والثقافية، فالنسق المضمّر يوجه نقداً للنظام الذي يغفل حقوق الإنسان، ويدين التمايز الطبقي بين أفراده.

وتجليها لتبرز هويتها بأي شكل من الأشكال، بل تصبح وسيلة فاعلة لتفسير التداخل بين هويتين وثقافتين مختلفتين.

وتظهر شخصية البدون التي تدون تاريخها من خلال مخطوط أو رسالة أو أي شكل من أشكال الكتابة، بوصفها الشخصية المحورية التي تتحرك وتتفاعل وتعترف وتفكر وتعارض وجهات نظر متنوعة، ولا سيما أنها تبوح بما في داخلها بالكتابة؛ إذ تقدم رواية الصهد من خلال السارد علي بن شومان وسارد عليم آخر ومخطوط لليل/ المرأة البدون، وهكذا تسقط سلطة الجسد/ الأنثى إذ يتحول الاهتمام إلى الكتابة بوصفها أيقوناً رابطاً بين الذات والآخر، هي محاولة لاستكشاف الذات من الآخر الذي يمتلك الهوية التي تبدو بعيدة المنال، ومن هنا تتحول الكتابة إلى وسيلة من وسائل مواجهة الذات للآخر.

وقد تغدو هذه المواجهة تأكيداً على معاناة البدون وتكريس دونيته، حين تكون الكتابة على سبيل المثال وسيلة لتذكر الماضي الأليم كما في مخطوط لليل في الصهد الذي عبر عنه علي: (لم أخف من كتابتها ولكنني ارتعبت من العودة إلى زمن قاسٍ ومكان مرير، أدركت أنني أكذب حين أقنعت نفسي بأنني تخلصت من كل شيء يربطني بزمني السابق<sup>[٦٥]</sup>)؛ مما يضاعف الشعور بالألم والرفض وهو ما عبر عنه المنسي في رسالته لابنته زينب (وأنا أجاهدني بالكتابة إليك، أشرع أسود عشرات الصفحات ثم انقلب علي

<sup>٦٧</sup> المصدر السابق، ص ٢٦٧.

<sup>٦٥</sup> الصهد، ص ٢١٨.  
<sup>٦٦</sup> في حضرة العنقاء، ص ٩.

**1/ الارتهان إلى الماضي:**

يتضمن هذا النسق الحنين إلى الماضي ربما فترة ما قبل الغزو العراقي للكويت، والهروب من الواقع الأليم، وقد كانت الوعود كثيرة حول مسألة التجنيس، كما أن أمورًا كثيرة كانت ميسرة آنذاك وتحولت لاحقًا إلى محظورات كما في السماح للبدون بالالتحاق بالجامعات (كان جميع زملائي الذين أعرفهم يلتحقون بالجامعة، وهم أيضاً بدون مثلي<sup>[٦٨]</sup>)، كما يسمح لهم بالسفر والتنقل من بلد إلى آخر، وكذلك الالتحاق بالوظائف العسكرية، وهو ما كان موضع تساؤل عيسى بعد أن أخبره غسان بأن البدون يمنع من السفر «ولكنك سافرت على تلك الطائرة التي تم اختطافها ذات يوم... ولكنك عسكري... أجاب: كنت.. في يوم ما..<sup>[٦٩]</sup>»، كما أن مرحلة الغزو قد تكون أكثر جدوى من المرحلة التالية له؛ فالمنسي/ البدون يحصل على بطاقة مدنية كويتية سلمها له القاضي صلاح الفهد زمن الاحتلال لكنها تصبح غير مجدية في زمن التحرير.<sup>[٧٠]</sup>

**٢/ استعادة الوطن المفقود، الذاكرة الحاضرة المنسية:**  
يتشكل هذا النسق من ربط بعض شخصيات البدون بشخصيات أخرى فقدت وطنها بفعل الاحتلال (ريم الفلسطينية في الصهد)، أو بسبب الاختلاف الشكلي (عيسى الكويتي في ساق البامبو) مما يكرس فكرة (فقد الوطن) إذ تعمق ذكريات شخصيات البدون نسقًا مضمراً حول عدم الانتماء للمجتمع/ الوطن وبالتالي

فقدهم له من خلال ذكريات في الصحراء، أو بلدان أخرى كالعراق على سبيل المثال. وعلى الرغم من تنوع أحداث رواية (الصهد) غير أن منطلق الأحداث ومركزها في كل مرة هو شخصية البدون (شومان/علي/ليال) وكل منهم يعاني أزمة الهوية والانتماء، رغم اختلاف تاريخهم الخاص وجذورهم الأصلية وتشظي الهويات بتنوع انتماءات شخصيات البدون؛ فالروايات تحليل ضمني للفعل الجماعي الذي يقود ويصنع جماعات البدون ذات الهويات الفرعية، حيث يتركز الاهتمام على مسألة الهوية التي تعد إشكاليتهم الكبرى.

إن تأويل دلالات النصوص يقودنا إلى أن العلاقات الاجتماعية مبنية على التنوع الذي يميز البيئة الكويتية للبدون، وهذا التنوع أو التعدد يحكم فعل الشخصيات وموقفها تجاه الأحداث، ولأن البدون يتألفون من مجموعة هويات تحاول الانتماء للهوية الأصل/ الكويتية، فإن ما يبدو من مجموعة السمات الثقافية التي تظهر في الخطاب لها، الذي يشكل النمط الثقافي الذي يميز كل هوية أو فئة معينة بحيث يصور أنه ضمن نمط ثقافي واحد (البدون)، إلا أنه في الحقيقة أنماط متعددة، ومن هنا فالخطاب المضمّر يظهر لنا تداعيات هذه القضية على كل فئة اجتماعية وثقافية بشكل مستقل، إذ تظهر لنا أنساق متنوعة لكنها تتشكل في أنساق أخرى أكثر انسجامًا والتحامًا ببعضها.

<sup>٦٨</sup> في حضرة العنقاء، ص ٣٢٦.

<sup>٦٩</sup> المصدر السابق، ص ١٤٠، ١٤١.

<sup>٧٠</sup> ساق البامبو، ص ١٩٢.

العلاقة على مبدأ التناظر والانفصال عن النسق الثقافي المهيمن.

- علاقة متوازنة بين الطرفين: المواطن/ البدون وإن طغى أحدهما في جانب ما فإن التأثير يكون طفيفاً جداً بحيث لا يؤثر في قيمة التوازن بينهما. هذه العلاقة تؤسس لمبدأ قبول الآخر والاندماج به ضمن النسق الثقافي المهيمن على المجتمع.

في هذا النسق تطغى العلاقة العكسية؛ فإذا كان البدون يسلم ظاهرياً بسيادة المواطن وهيمنته داخل وطنه، إلا أنه في النسق الثقافي المضمّر يخفي ثورة ورفضاً لهذه الهيمنة، وهنا يبدو المواطن في صورة نقيضة للبدون المخلص المكافح المحب للوطن، فالأدب هنا يكشف عن نسق مضمّر لا يقره المجتمع حيث فوقية البدون ودورهم الريادي في خدمة الكويت والشعور بالانتماء من خلال المشاركة في أعمال المقاومة الكويتية<sup>[٧٢]</sup>،

وهو ما عبرت عنه ليال في الصهد «لم يعرف أحد من زملائي شيئاً عن حياتي الخاصة سوى أنني لا أحمل مثلهم الجنسية الكويتية...أحمل هم وطني ربما أكثر مما يحملون<sup>[٧٣]</sup>»؛ مما يعزز حقهم في الحصول على الجنسية أسوة بالآخرين استناداً على ما قدموه من خدمات للوطن «ولد أبواك هنا.. أخوتك، كلهم كويتيون.. شغلت وظيفة في الجيش.. شاركت أبي الكويتي بالدفاع عن الكويت<sup>[٧٤]</sup> كما يتضمن الإعلاء من شأن البدون «المنسي يستحق وساماً لا أن يزج به

والحياة المتشظية التي يسعى البدون إلى إعادة بنائها تقود إلى نسق من الكتابة تمثلها إذ تعيد تجميعها من خلال العلاقة بين الوطن الأصلي المفقود من جهة/ والوطن المستضيف من جهة ثانية، وبين هاتين الجهتين تتشكل مستويات متنوعة تدور حول فكرة الانتماء وسؤال الهوية، ومن هنا فهذا النوع من الكتابات يعنى بالذات الجمعية أكثر من عنايته بالذات الفردية سواء كان من كتبها من البدون أو من المنتمين إلى الوطن؛ إذ تشترك في تصويرها لحالة الشتات وفقدان التمرکز في المكان وبالتالي في ثقافته. كما أن استخدام الضمير بصوت الجماعة (نحن) الذي قد يشير إلى الهوية المتجذرة يتحول إلى نقيض ذلك ليؤسس لفعل الانفصال الجماعي عن هذه الهوية غير المتجذرة «نحن (بدون) بدون أي شيء يحمينا أو يغطينا أو يؤمننا... نحن عراء منبوذ في بدون.<sup>[٧١]</sup>»

### ٣/ التمثيل المضاد للمنتمي:

تتخذ علاقة الذات (الكويتي) بالآخر (البدون) في النصوص ثلاثة أشكال:

- التمايز بين الطرفين حيث يحتل الأول مرتبة أعلى، بينما يحتل الآخر مرتبة أدنى؛ اتساقاً مع النسق الثقافي المهيمن على الواقع الاجتماعي العربي عامة والكويتي خاصة.

- العلاقة العكسية حين تغدو الذات هي الآخر ويتحول الآخر إلى ذات، فيعلو الأدنى (الآخر/ البدون) ويهبط (الذات/ الكويتي) مما يعني تأسيس هذه

<sup>٧٢</sup> الصهد، ص ٢٤٩.  
<sup>٧٤</sup> ساق البامبو، ص ١٩٣.

<sup>٧١</sup> سلالم النهار، ص ٢٣، ٢٤.  
<sup>٧٢</sup> في حضرة العنقاء، ص ٢١٠.

الكفاح في سبيل تجسيد صورتهم في المجتمع من خلال ما يقدمونه من أعمال إيجابية تخدم الوطن، وهنا تتوزع النصوص الروائية بين أنساق ظاهرة تحمل التعاطف مع البدون وإظهار تضحياته وبطولاته في سبيل الوطن الذي ينبذه، وأنساق مضمرة تحمل محمولات وإشارات بعيدة، فالصورة الإيجابية التي تشكل من خلالها البدون في النسق السطحي تتحول إلى صورة سلبية للمنتمي في النسق المضمرة له.

ويلاحظ هنا أن طريقة المواجهة لدى البدون، تركزت في تأكيد انتمائه للوطن الذي ولد فيه ودافع عنه، ولم يشعر بالاختلاف عن ينتمي إليه سوى في الأمور المصرية المتعلقة بإجراءات رسمية معينة، هذا التأكيد منه عزز من مفهوم الهوية الوطنية، وعزز معه المواقف الرسمية تجاهه، حيث صار الاهتمام منصرفاً نحو الحصول على الهوية/ الجنسية ليصبح بعدها كويتياً ضمن المجتمع الذي يعيش فيه، وضاعت قضية الانتماء واحتضان الآخر، ومنحه حقوقه كاملة بوصفها أمراً جوهرياً قد يكون أكثر أهمية من مجرد الحصول على الجنسية، وتحقيق المواطنة التي هي نتيجة فعلية لها. وهو ما عبر عنه عيسى الكويتي ذو الهوية الناقصة (خذوا هذه الأوراق وأعيدوا إلي نصف إنسانيتي) حين يرفض الوطن مقابل رفض الوطن له. إن رفض البدون هنا هو رفض للفاعلية الصانعة للوطنية من خلال انتقاد كل ما هو وطني.

في السجن<sup>[٧٥]</sup> على لسان القاضي صالح الفهد، والتعبير عن حبه الحقيقي للوطن وأصحابه ((كنا نحتفل بحبنا للكويت.. وجه سبابته إلى صدره. أتم: هنا<sup>[٧٦]</sup>))، كما أن المنسي بن أبيه يغدو متمسكاً بالمكان/ الوطن بينما يغادره آخرون كويتيون إلى المغرب وسوريا وفرنسا ليستقروا هناك.

ومن التمثيل المضاد للكويتي والثقافة السائدة، حرص رواية الصهد والروايات الأخرى على نقل البدون من الهامش إلى المركز؛ حيث يشارك في صناعة المشهد الوطني، وجميع سياقاته الاجتماعية والسياسية والتاريخية، وتبنى حوله أحداث كثيرة ومتشابكة؛ فالنسق المضمرة في أحد مدلولاته يوجه النقد لنظام يعكس التمايز بين المواطن/ اللامواطن والمناداة بتساوي حقوق الإنسان، كما يوجه نقدًا لاذعًا لمن يتصور أن الوفاء والإخلاص والتضحية رهين الحصول على هوية الجنسية عندما تقدم نماذج أخرى سيئة للمواطن المنتمي. وهنا تحول النصوص الغائب (البدون) عن البنية المجتمعية الثقافية إلى حاضر في بنى النصوص، ومقابل ذلك تحول الحاضر (الكويتي) في البنية المجتمعية المهيمنة إلى غائب على مستوى النصوص.

ومن هنا، تتضمن النصوص الروائية في بنيتها العميقة إعلاء لشأن الآخر/ البدون، الذي يتحول إلى ذات (أنا) تكون مهيمنة رغم ثانويتها وهامشيتها في هذه النصوص؛ حيث يتجلى نسق البحث عن سر

<sup>٧٦</sup> ساق البامبو، ص ٢٠٥.

<sup>٧٥</sup> في حضرة العفاء، ص ٣٤٣.

أنجبتة ثم تخلت عنه، والكويت الحبيبة التي لا يستطيع نسيانها رغم بعده عنها، هذا الشعور المتداخل عبر عنه حين أتاحت له الفرصة لمساعدة مواطنة في حضور مؤتمر علمي.<sup>[٧٩]</sup>

ومن صور دونية المواطن، سعود الكويتي الذي رفض زواج المنسي من أخته عهود لأنها كويتية وهو بدون، وهو نفسه الذي يحيك ضده مؤامرة ويلصق به تهمة كيدية يحاكم على إثرها ثم يخون الوطن فيزج به بين أيدي الجيش العراقي لأنه من أفراد المقاومة الكويتية<sup>[٨٠]</sup>، فهو مواطن صوريًا لا فعليًا، وهنا تثبت جرمية قصد سعود في الزج به في السجن ما دام عميلًا متطوعًا هدفه الإضرار بالمقاومة<sup>[٨١]</sup>، كما أن عهود التي تتزوج به لتتجنب زينب تتخلى عنه فيدخل دائرة التهميش من جديد. وهناك في الصهد شريف بن فضل الكويتي الذي تعاون مع الغزاة كما تعاون معهم قيس بن شاكر الكويتي من أصول عراقية الذي يغدو جاسوسًا للمخابرات العراقية ليرصد حركة المقاومة الكويتية<sup>[٨٢]</sup>، وهناك الأستاذ في ارتطام لم يسمع له دوي، الذي يرافق فرح في رحلتها العلمية مستغلًا أموال البلد لمركزه المرموق في المجتمع<sup>[٨٣]</sup>، وفي سلام النهار هناك نورة من أصول نقية وغنية تقدم المساعدة لفهدة/ البدون وتدعمها لمواصلة دراستها الجامعية لكنها تستغلها وسيلة للقاء حبيبها اللبناني (زياد)

ومن التمثيل المضاد للكويتي/ فرح الكويتية في (ارتطام لم يسمع له دوي) حيث تسافر لتكتشف الإحساس بالتخلف الذي تعيشه في بلدها، فتتغير مشاعرها إلى انتقاص لوطنها بعد أن تربت على حبه والتفاني من أجله (حين تصبح هويتك عورة في عالم يناقض كل بديهياتك<sup>[٧٧]</sup>)، وفي ساق البامبو هناك تصريح لهند الكويتية ينشر في الصفحة الأولى لصحيفة (مشككة في ولاء المواطنين هند الطاروف: الكويتيون لا يستحقون حمل الجنسية الكويتية<sup>[٧٨]</sup>)، وهنا يكون الانتقال من دونية البدون المفروضة في المجتمع الكويتي إلى دونية المواطن بوصفها ردة فعل تقوض هذه الثقافة السائدة، فيصبح الدور الحقيقي للبدون الشخصية وحتى البدون/ الكاتب ثورة على النسق الثقافي المهيمن على المجتمع.

ومن التمثيل المضاد، حرص غسان على إحضار عيسى ذي الهوية المزدوجة من الفلبين إلى الكويت، هو في الواقع تحدٍ للآخر الكويتي الذي لم يتقبله اجتماعيًا وثقافيًا من خلال من هو جزء من هذه الثقافة رغم رفضها له، فهو كويتي ذو هوية وجواز كويتي أكثر من غسان الذي ولد وعاش في الكويت التي لا يعرف وطنًا سواها. ويتضاعف الشعور بالألم عندما يصبح أخوته الخمسة كويتيين ويبقى هو الوحيد بدون، وضاري في ارتطام لم يسمع له دوي يعيش شعورًا متناقضًا بين هروبه من الكويت التي كانت بمثابة أم

<sup>٨١</sup> المصدر السابق، ص ٣٦١.

<sup>٨٢</sup> المصدر السابق، ص ٣٦٥.

<sup>٨٣</sup> ارتطام لم يسمع له دوي، ص ١٢.

<sup>٧٧</sup> ارتطام لم يسمع له دوي، ص ١٠.

<sup>٧٨</sup> ساق البامبو، ص ٣٧٩.

<sup>٧٩</sup> ارتطام لم يسمع له دوي، ص ٩٥.

<sup>٨٠</sup> في حضرة العنقاء، ص ٢٣٤.

الثقافة؛ فيغدو عفيفاً طاهراً نقيّاً لكنه يستجيب للذة بحجة الإعلان عن الذات ليغدو مكرماً في حين أنه مبتذل ومهان (ليست بأشرف من الفتيات اللواتي يرقصن... إنها بدون حقيرة<sup>[٨٦]</sup>)، فالمرأة البدون التي تنتهك جسدها تمارس تمرّداً على الثقافة التي أنجبتها طالما كانت هذه الثقافة تؤكد على حرمة هذا الجسد وعفافه وطهره .

#### ٥/ اللعنة الجمعيّة:

يتضمن هذا النسق النبذ الذي يلحق بالفرد والجماعة على حد سواء. هذه اللعنة الجمعيّة جعلت من حياة هؤلاء الأشخاص تاريخاً موسوماً بالفقد والخسارة، إذ تلحق بجميع الشخصيات دون استثناء؛ وافتقاد الهوية لا يطال شخصيات البدون المطروحة في الرواية بعينها، وإنما يأتي على كل من ينتمي إليها من أفراد العائلة (الأجداد والآباء ومن ثم الأبناء)، فهل يعني هذا أن هذه الروايات تهتم بالتاريخ المتصل بالمجتمعات والأقاليم والدول بوصفها ذات امتداد تاريخي أوسع وأشمل من البحث في التاريخ الفردي المتعلق بالذات، وذلك بالاهتمام بتاريخ الأب والأم والعائلة والمكان والزمان المقترن بها؟ فشومان الوالد في الصهد يغادر الصحراء موطنه الأول إلى المدينة (الجهراء) لكن المدينة لا تقبل به فيصبح بلا هوية ولا منزل، فينتقل بعدها إلى أطراف المدينة حيث الهامشية التي تشبه وضعه تماماً. وشومان ودلالة الاسم على الشؤوم الذي سيورثه لابنه علي الذي يخرج من الوطن

فالكثير ممن يحمل الجنسية/ الهوية لا يعلم شيئاً عن حب الوطن ولا حتى معنى وطن.

#### ٤/ المرأة، البدون المضاعف:

تبدو علاقة المرأة بالمكان في بعض المواضع غير مباشرة، مع أن ذلك لا يمنع مشاركتها فيه بالفعل الذي يترك أثراً واضحاً في البنية الاجتماعية والسياسية والتاريخية العامة له، غير أن المرأة هنا لا تخرج عن صورة الكائن الضعيف الذي يستهلكه المجتمع، ويعيد الأدب إنتاجه في ضوء حيثيات مشابهة لوضعه الحقيقي في المجتمع؛ فعهود الكويتية التي يمارس أخوها سعود اضطهادها ويقرنها بحالة البدون يقول عنها: «المرأة بدون من نوع ثانٍ<sup>[٨٤]</sup>»، وفي موضع آخر «اسمع يا البدون أنت حقير وعهود حقيرة مثلك<sup>[٨٥]</sup>»، كما أن رفض ليال الاستجابة للأخر/ الكويتي وتلبية رغباته، يوقعها في مأزق حقيقي تفسر من خلاله عملية القتل بأنها انتقام لا دفاع عن الوطن/ اللاوطن، وهنا تختزل صورة الأنثى التي يفترض أن تكون تابعة للرجل منساقه خلفه وإلا فإن عقابها سيكون الموت حتماً من خلال السجن ظلماً، أو الانتحار الذي اختارته مصيراً لها بعد أن عجزت عن إثبات وفائها وإخلاصها لذلك الوطن الراض. فعندما يقبل الهامش وينقل إلى المركز يكون إقصاؤه وإعادة إنتاجه بوصفه هامشاً لن يتغير. وإقصاء المرأة/ البدون بوصفها عورة مضاعفة يخفي وجودها الإنساني لكنها تستدعي لغرض المتعة، وكأن جسد المرأة يتأثر بالتقاليد المحافظة التي ترسخها

<sup>٨٦</sup> الصهد، ص ٣٣٢، ٣٣٣.

<sup>٨٤</sup> في حضرة العنقاء، ص ٧٤.

<sup>٨٥</sup> المصدر السابق، ص ١٤٧.

ومسخر لتحقيق رغبات الغير، وكونه (ابن أبيه) فإذا كان البدون بلا هوية وانتماء فإنه هنا يغدو كذلك بصورة مضاعفة، فمن يتسمى بهذه التسمية هو في الحقيقة لقيط مجهول الأب (كنية ابن أبيه تعني أني لقيط. أصابته الصدمة. الله يخسك. ألح على معرفة مصدر المعلومة التي تحيلني ابن زنا. كتب التاريخ تؤكد ذلك. الرجال مجهولو الآباء وحدهم يكتسبون هذه الكنية<sup>[٩٠]</sup>، ويمتد أثر اللعنة على المنسي لاحقاً ف(زواج البدون يعني خلفه بدون<sup>[٩١]</sup>)، وفي تعليقه سبب منع تحرير عقود زواج البدون (أمر المنع لا يتصل بمسألة تنظيم نسل أو تحديده، لكنه إلغاء حتمي لنسل البعض<sup>[٩٢]</sup>).

وتحرص الروايات على أن تصنع من شخصيات أخرى مواطنة أو غير مواطنة طرفاً موازياً للبدون؛ لتشكيل أنماط مشابهة لهذه اللعنة، إذ كان للبدون حضور لافت وذو دلالة فيها، فغاية الخطاب الأدبي عن البدون هو تأويل هؤلاء بوصفهم أفراداً ينتمون للمجتمع الكويتي على الرغم من عدم حصولهم على الجنسية وذلك كي يبرر أحقيتهم فيها، في (ارتطام لم يسمع له دوي) ضاري البدون وفرح المواطنة التي تشعر بالقمع في مجتمع ذكوري، فتعبر عن حال المرأة بوصفها من المهمشين. وفي (الصهد) علي والفتاة الفلسطينية ربما التي تشعر بالقمع والإقصاء الإجباري عن وطنها فهي المواطنة بلا وطن (أنا مجموعة أوطان

إلى الغرب بحثاً عن انتماء من نوع آخر<sup>[٨٧]</sup> إنه هو شؤمي الذي لن أهرب منه<sup>[٨٧]</sup>))

كما يرفض غسان في ساق البامبو هذا الامتداد الذي تطوله اللعنة (لا أريد أن أنجب أبناء يلغونوني بعد موتي<sup>[٨٨]</sup>)، فهو لا يريد للنعنة البدون أن تنتشر؛ إذ هي الجينة الخبيثة التي لصقت به وستنتقل لأبنائه ومن ثم السلالة كاملة (البدون يا عيسى جينة مشوهة تتعطل بعض الجينات ولا تصل إلى الأبناء، أو تتجاوزهم لتظهر في الأجيال اللاحقة من ذريتهم، إلا هذه الجينة الخبيثة فإنها لا تخطئ أبداً، تنتقل من جيل إلى آخر محطمة آمال حاملها<sup>[٨٩]</sup>)).

وهذه اللعنة قد تبدو مضاعفة في (في حضرة العنقاء والخل الوفي) فعدم استكمال العنوان وفقاً للعبارة المقطعة من نص شعري لصفي الدين الحلي يتبعه عدم استكمال لجمل وفقرات النص التي تبتتر في كل مرة، وتمنح القارئ فرصة إكمالها، هذا النقص/الفقد المائل في العنوان والنص، إنما هو تعبير عن إشكالية النص الكبرى حيث نقص الانتماء/الهوية للوطن الذي لم يعرف سواه. ثم إن العنوان الناقص الذي تختفي منه إحدى المستحيلات (الغول) يكمله النص فيطرح مستحيلاً ثالثاً هو الهوية/الجنسية التي تغيب عن عنوان النص كما تغيب عن بطله المنسي وتغيب عن اسمه أيضاً؛ فالمنسي لا يعترف به في حيز الوجود المجتمعي، وهو على هذه الصيغة الصرفية موضوع

<sup>٩٠</sup> في حضرة العنقاء، ص ١٩.

<sup>٩١</sup> المصدر السابق، ص ٣٧.

<sup>٩٢</sup> المصدر السابق، ص ٤٨.

<sup>٨٧</sup> المصدر السابق، ص ١٥.

<sup>٨٨</sup> ساق البامبو، ص ٢٢٧.

<sup>٨٩</sup> المصدر السابق، ص ٢٢٨.

تتقاسم إنساناً وتتجاذبه دون أن يكون له أدنى رأي أو إرادة في اختيار مكانه<sup>[٩٣]</sup>، وفي موضع آخر «أوضاعكم تشبه أوضاعنا إلى حد كبير<sup>[٩٤]</sup>»، وفي (ساق البامبو) غسان البدون وعيسى المواطن الذي يشعر بالقمع في مجتمعه لأن ملامحه تفضح انتماءه الجزئي للوطن فأمه غير كويتية بل وغير عربية، فكلاهما يرفضه المجتمع ويقل من شأنه؛ فالساق يبدو منفصلاً عن الجذور التي تماثل جذور الهوية والأصل، وهي الإشكالية التي تركز عليها الرواية وتدور شخصياتها في فلكها، فغسان يغدو مثله مثل عيسى ساقاً بلا جذور وانتماء؛ إذ ليس له ماضٍ معروف يربطه بالحاضر. وهناك هند المواطنة الكويتية في الرواية نفسها التي تناضل من أجل حقوق البدون نظرياً لكنها تفشل عند التطبيق.

### ٦/ النسق الثقافي المادي:

تعكس المظاهر الخارجية للشخصيات الأنساق الثقافية المادية التي تتضمن أنماط المعيشة وأسلوب الحياة؛ مما يعكس التوجهات الاجتماعية والثقافية من خلال ارتداء لباس معين، أو استعمال أشياء معينة، أو حتى تناول أطعمة ومشروبات معينة تعزز سلوكيات المجتمع وثقافته.

في اللباس، يمكن ملاحظة حال غسان في ساق البامبو؛ إذ تمثل البدلة العسكرية التي يرتديها البدون كغيرهم من أبناء الوطن نموذجاً مرتبطاً بالوطن/ اللاوطن، وإذا كان اللباس محكوماً بالأعراف الإنسانية

التي تحتم على الإنسان ارتدائه، إلا أن هذا النص أدرج ما يحتم الالتزام بالنسق الثقافي/ السياسي المتداول في المجتمع، فهذا اللباس هو نتاج تقسيم سياسي؛ إذ أصبح لكل قسم منه لباسه العسكري الخاص الذي يمثل الوطن. ويقترن هذا اللباس في الذاكرة الجمعية الحديثة بالانتماء إلى الوطن الذي يكون مسخراً للدفاع عنه كما يقترن بالتقسيم السياسي لتأسيس الدولة الحديثة، وما التأكيد على وصف هذا اللباس وربطه بغسان إلا دليل على هيمنة النسق الثقافي للمجتمع على الذهن والوجدان. وغسان خدم في الجيش الكويتي قبل الغزو وهو شاعر وعازف على آلة العود وشارك في تأليف الأغاني الوطنية لمقاومة الاحتلال<sup>[٩٥]</sup>، كما أن غسان ذا الملامح الكويتية/ الخليجية/ العربية يرتدي اللباس التقليدي (الثوب والغترة والعقال) أما عيسى فلا يشبه الكويتيين حتى لو ارتدى لباسهم التقليدي، فملاحم وجهه تفضح انتماءه لشرق آسيا عن طريق أمه لكنهما لا يختلفان كثيراً فكلاهما رفضه المجتمع.

وفي الصهد، يكون الاحتفاء بالتقاليد والاعتداد بالعرف من خلال وصف اللباس؛ لتأكيد النسق الراسخ الذي يكرس القيمة المركزية للمجتمع الخليجي الذي يتسم بالبدواة، وهذا يناهض قضية الجنسية فالبدوي موطنه في كل مكان يرتحل إليه طالما كان في حدود موطن العرب (الجزيرة العربية) وهناك مظاهر ثقافية أخرى تؤكد الانتماء لهذه الثقافة (الم تكن القهوة الأمريكية

<sup>٩٥</sup> ساق البامبو، ص ٢٠٠.

<sup>٩٣</sup> الصهد، ص ٢٣٠.

<sup>٩٤</sup> المصدر السابق، ص ١٣٩.

للبدون يرجح كفة الآخر عليه، فالمنسي يردد النشيد الوطني الكويتي مع زملائه الكويتيين بينما يذكر أبناء البلدان العربية الأخرى أسماء بلادهم بعد كلمة (وطني) يذكر هو اسم الكويت وهنا يباغته أحد الطلبة العرب «أنت غير كويتي»<sup>[١٠١]</sup>، كما يتضاعف الشعور بالدونية عندما يكبر ففي رحلة جوية يلحظ «كابينات ذات لافتات كتب عليها مواطنو مجلس التعاون الخليجي، غير بعيد عنها كابينات ذات لافتات جنسيات أخرى، أنا لا تعاون خليجي، ولا جنسيات أخرى»<sup>[١٠٢]</sup>.

كما أن الفلسطينية ربما التي أحبها علي/ البدون في الصهد، ورغب الزواج بها، يكون ذلك موضع استنكار على لسان قيس «وماذا ستفعل فلسطينية بشاب بدون جنسية»<sup>[١٠٣]</sup>، وربما كان هذا الاستنكار مرده أن الفلسطيني يشترك مع أفراد وطنه في المصير نفسه، وهو يدرك أن لديه هوية وإن كانت مغيبة بفعل الاحتلال أما البدون فهم أصحاب انتماءات متفرقة لا تعود إلى بلد بعينه، وغياب الهوية هو جرم وعار يوصمون به وإن لم يرتكبه. وربما هذه التي أحبها علي وأبدى تعاطفًا مع قضيتهم قبل أن يسقط عنها القناع في كندا لتظهر على حقيقتها بعد أن وقعت الكويت تحت وطأة الاحتلال، أما (علي) فقد انتهج موقفًا مخالفًا؛ لأنه لم يكن ولن يكون إلا كويتي الانتماء

طيبة، أدمنت... قهوة والدي العربية<sup>[٩٦]</sup>، وفي ارتطام لم يسمع له دوي «القهوة أفضل لسفير للوطن»<sup>[٩٧]</sup> كما أن استدعاء الحكايات والقصص الشعبية عن العفاريث والجن، واللؤلؤ الذي يمثل قيمة ثقافية اقتصادية لأهل الخليج، أغاني عوض الدوخي والأغاني الوطنية<sup>[٩٨]</sup>؛ يعزز هذا النسق الثقافي ويؤكد مدى ارتباط البدون به. وقد تكون مظاهر هذا النسق مدعاة لسخرية البدون من المواطن؛ إذ يغدو اللباس الوطني مثلًا سببًا لشعور المواطن بالفوقية التي يتجرد منها حال نزعه وهو ما عبر عنه المنسي «أي رجل كويتي بالزي الوطني عندما يقابل آخر غير كويتي لا يعرفه شخصيًا حيث الخطاب الفوقي بالتجهم الملازم له... انزع عن الكويتي دشاشته يتغير سلوكه»<sup>[٩٩]</sup>.

#### ٧/ الآخر في مواجهة الآخر:

إذا كان الآخر هو البدون بالنسبة للكويتي المنتمي للوطن، فإن هناك آخر يظهر في مواجهته وهو المنتمي إلى ثقافة أخرى تختلف عن ثقافة المجتمع الكويتي التي يبدو البدون منتميًا إليها، وإن كان فاقداً لوثيقة هذا الانتماء، وهنا يظهر الآخر (البدون) الذي يتحول إلى ذات ضمن هذه المواجهة، لكن هذه الذات في «مجموعة المواقف التي تحدث بينها وبين الطرف الآخر في حالة تلق لأقواله وأفعاله حين تشعر الذات بتفوق هذا الآخر»<sup>[١٠٠]</sup> وهذا يكرس نسقًا دوليًا جديدًا

<sup>١٠٠</sup> بول ريكور، الذات عينها كآخر. ترجمة: جورج زينات، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ٢٠٠٥، ص ٣٧٩.  
<sup>١٠١</sup> في حضرة العنقاء، ص ١٥.  
<sup>١٠٢</sup> المصدر السابق، ص ٣٦.  
<sup>١٠٣</sup> الصهد، ص ٢٣٨.

<sup>٩٦</sup> الصهد، ص ١٨٤.  
<sup>٩٧</sup> ارتطام لم يسمع له دوي، ص ٥٠.  
<sup>٩٨</sup> المصدر السابق، ص ١٥٢، ١٥٣.  
<sup>٩٩</sup> في حضرة العنقاء، ص ١٤٢، ١٤٣.

شأنه كما يفرز أنساقًا أخرى تضم تورية ثقافية أكبر، تتمثل في تأكيد الآخر رغم افتقاده للهوية الوطنية من خلال وسائل متنوعة ولحظات زمنية مختلفة.

### المصادر والمراجع:

- المصادر:
- إسماعيل، إسماعيل فهد. في حضرة العنقاء والخل الوفي. بيروت: الدار العربية للدراسات والعلوم، ط١، ٢٠١٣.
- السالم، فوزية شويش. سلالم النهار، القاهرة: دار العين، ط١، ٢٠١٢.
- السنوسي، سعود. ساق البامبو، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١٤، ٢٠١٤.
- الظفيري، ناصر. الصهد، المنامة: دار مسعى، ط١، ٢٠١٣.
- العيسى، بثينة. ارتطام لم يسمع له دوي، الكويت: مكتبة آفاق، ط٢، ٢٠١٣.
- المراجع:
- إبراهيم، عبدالله. المطابقة والاختلاف - بحث في نقد المركزية الثقافية - بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ٢٠٠٤.
- الجابري، محمد عابد. العقل السياسي العربي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٠.

والحب. وهناك من حصل على الجنسية وهو ليس كويتيًّا في الأصل شاكر (ما يغيظك يا شومان من أنني أصبحت كويتيًّا؟ لأن وقتنا لم يحن بعد كما حان وقتك<sup>[١٠٤]</sup>)، إذ يحمله شومان على جملة إلى الكويت قادمًا من العراق ليتمتع بمزايا الجنسية ويحرم منها شومان، يهين الابن قيس الابن علي لأنه بدون، ويكون التساؤل هنا عن المعيار الذي يحتكم إليه في منح الجنسية لشخص وحرمان آخر منها.

### الخاتمة

خلص هذا البحث إلى استنتاج الأنساق الثقافية التي شكلت صورة البدون في الرواية الكويتية؛ مما يعكس تساؤلات البدون كما تجلت في النصوص الروائية عن العلاقة التي تربطه بأرض الكويت، فهو وإن ولد عليها وتأسست جذوره فيها، يعيش انفصاليًّا جبريًّا عنها، هذا الانفصال مرده تشكل مجموعة من الأنساق المرتبطة بثقافة المجتمع، وهنا تتكون ثلاثة خطابات رئيسة تحدد علاقة البدون بهذه الأنساق: خطاب الهيمنة؛ حيث تتجلى الأنساق الظاهرة التي تحيل إلى دونية البدون وتجعله ضمن نسق عام هو الاختلاف والمغايرة عن المواطن المنتمي. خطاب المواجهة: وهو في ظاهره تمرد وثورة على ما تقوله الثقافة عن البدون لكن النسق المضمّر له يؤكد على دونية البدون مرة أخرى. وهناك خطاب المضمّر: حيث يتعارض النسق الظاهر الذي يكرس الدونية مع نسق مضمّر يستهدف الإغلاء من

<sup>١٠٤</sup> المصدر السابق، ص ٨٩.

- ريكور، بول. الذات عينها كآخر. ترجمة: جورج زيناتى، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥.
- أبو زيد، نواري سعودي. محاضرات في علم الدلالة، عمان: عالم الكتب الحديث، ط١، ٢٠١١.
- بن عبدالعالي، عبدالسلام. أسس الفكر العربي المعاصر، الدار البيضاء: دار توبقال، ط١، ٢٠٠٢.
- عبدالله، محمد حسن. الحركة الأدبية والفكرية في الكويت، رابطة الأدباء في الكويت، ط١، ١٩٧٣.
- عليمات، يوسف. جماليات التحليل الثقافي - الشعر الجاهلي نموذجًا - بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ٢٠٠٤.
- الغدامي، عبدالله: - القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة، بيروت، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط٢، ٢٠٠٩.
- - النقد الثقافي - قراءة في الأنساق الثقافية العربية - بيروت، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط٣، ٢٠٠٥.
- كاظم، نادر. الهوية والسر - دراسات في النظرية والنقد الثقافي - بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ٢٠٠٦.
- بن كراد، سعيد. مسالك المعنى - دراسة في بعض أنساق الثقافة العربية - سوريا: دار الحوار، ط١، ٢٠٠٦.
- كريسويل، إيديث. عصر البنيوية، ترجمة: جابر عصفور، الكويت: دار سعاد الصباح ط١، ١٩٩٣.
- الكعبي، ضياء. السردي العربي القديم - الأنساق الثقافية وإشكاليات التأويل - بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٥.
- محمود، زكي نجيب. قيم من التراث، بيروت: دار الشروق، ١٩٩٠.
- مفتاح، محمد. التشابه والاختلاف، - بيروت، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٦.
- النجار، مصلح وآخرون. الدراسات الثقافية ما بعد الكونيلية، الأردن: الأهلية، ط١، ٢٠٠٨.
- الياسي، زينب عيسى، البناء الفني في الرواية الكويتية المعاصرة، ط١، الشارقة: دائرة الثقافة والإعلام، ٢٠٠٩، ص ٣٠.
- يوسف، أحمد:

- العنزى، سعاد. ((سؤال الهوية في أدب المرأة الكويتية المعاصرة))، صحراء نيوز، مجلة إلكترونية  
<http://www.sahranews.com/news9230.html>
- القحطاني، فيصل محسن. ((الخطاب الاجتماعي في الرواية الكويتية المعاصرة))، مجلة البيان، العدد ٥٧٧، أغسطس ٢٠١٨.
- قراءة النص وسؤال الثقافة- استبداد الثقافة ووعي القارئ بتحويلات المعنى- عمان : عالم الكتب الحديث، ط١، ٢٠٠٩.
- القراءة النسقية - سلطة البنية وهم المحاينة-، الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠٠٧.
- الأبحاث والمقالات:
- سويدان، ليلاس. شخصية البدون في الرواية الكويتية، جريدة القبس الإلكترونية، إبريل ٢٠١٤/٤/١. البحث على صيغة pdf.

## **The Bidun in the Kuwaiti Novel: A Cultural Approach**

Dr.Hessa Zeed Almufarikh

*Associate Professor of Literature and Modern Criticism*

*Department of Arabic Language - College of Arts - King Saud University*

*Abstract.* this study is concerned with revealing how the Bidun issue is represented in the Kuwaiti novel. It attempts to approach narrative texts not in terms of their aesthetics but in terms of the implicit cultural systems regarding this issue. Thus, the narrative texts are not only literary but also social and cultural discourses. The relationship between the narratives texts and culture is manifested in three discourses: The discourse of the domination of cultural systems that stems generally from the cultural traditions of the society. The discourse of confronting cultural systems, which reinforces their domination, and finally the discourse of the implicit systems, which is a rebellion against the prevailing norms. The last two constitute specific systems that represent individual visions and distance itself from the vision of the dominant collective of culture.